كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: **الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما قصمته**» [السلسلة الصحيحة [٥٤١]]، وقال ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**» [السلسلة الصحيحة [١٨٠٢]]، فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان، وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات. ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين: شطر في الكبر وشطر في العجب.

الشطر الأول من الكتاب في الكبر:

بيان ذم الكبر:

قد ذمَّ الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر، فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وذم الكبر في القرآن كثير، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني في واحدًا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي**» [رواه مسلم بلفظ «عذبته»، و«رداؤه»، «إزاره»، ورواه أبو داود بلفظ «قذفته في النار»، ورواه ابن

ماجة وهذا لفظه، وأورده في السلسلة الصحيحة]، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: «التقى عبد الله ابن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه**» [رواه مسلمٌ بلفظ: لا يدخل الجنّة...]. قال رسول الله ﷺ: «**يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق ويقول: وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين**» [السلسلة الصحيحة [٥١٢]]، وقال ﷺ: «**تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين وبالمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها**» [متفق عليه]، وقال عبد الله بن عمرو: إنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ نوحًا** عَلَيْهِ السَّلَامُ لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك والكبر، وآمركما بلا إله إلّا الله، فإنه لو وضعت السماوات والأرض في كفة ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما، ولو أنّ السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقةً فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء» [أورده الألباني في السلسلة الصحيحة]. وقال ﷺ: «**أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون**» [أورده الألباني في الصحيحة]، وقال ﷺ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطؤهم الناس، ذرًا في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الأنيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار**» [صحيح الجامع]، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى**» [رواه البزار دون قوله «الجبارون» ورواه الترمذي وحسنه الألباني بلفظ: يغشاهم الذي

من كل مكان]، وقال: «**من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدَّين والغلول**». [صحيح الجامع[٦٤١١]].

الآثار: قال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا يحقرن أحدٌ أحدًا من المسلمين، فإنّ صغير المسلمين عند الله كبير»، وقال وهب: «لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر، وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يومًا ومصعب مادّ رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجبًا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن آدم، يغاسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات. وقد قيل في ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، هو سبيل الغائط والبول. وقد قال محمد بن الحسين بن علي: «ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلَّ أو كثر». وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال: الكبر. وقال النعمان بن بشير – على المنبر –: إنّ للشيطان مصالي، وفخوخًا، وإنّ من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله، نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنّه وكرمه.

بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب:

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرًا**» [متفق عليه]، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**بينما رجل يتبختر في بردته إذ أعجبه نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**» [متفق عليه]، وقال ابن عمر سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «**لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء**» [متفق عليه]. وروي: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بصق يومًا على كفيه ووضع أصبعه عليه وقال: «**يقول الله تعالى: «ابن آدم، أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين**

ولـلأرض منـك وئيد جمعـت ومنعت حتى إذا بلغـت التراقي قلت أتصـدق! وأنّى أوان الصدقـة» [السلسـلة الصحيحـة]، وقـال ﷺ: «**إذا مشـيت أمّتي المطيطـاء وخدمتهم فارس والروم سلّط الله بعضهم على بعض**» [السلسلة الصحيحة [٩٥٦]]، قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال. وقال ﷺ: «**من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان**» [السلسلة الصحيحة [٥٤٣]].

الآثـار: مرَّ بالحسـن شـاب عليه بـزة له حسـنة [أي وهو معجبٌ بهـا] فدعاه فقال لـه: ابن آدم معجب بشـبابه محب لشـمائله، كأنّ القبر قد وارى بدنـك وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك! داوِ قلبك إن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

رأى محمد بن واسـع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتـي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله من المسـلمين مثله! ورأى ابن عمر رجلًا يجر إزاره فقال: إنَّ للشـيطان إخوانًا - كررها مرتين أو ثلاثة -. ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشـخير رأى المهلـب وهو يتبختر في جبـة خز، فقال: يا عبد الله، هذه مشـية يبغضها الله ورسـوله، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى، أوّلك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنـت بين ذلـك تحمل العـذرة! فمضى المهلب وترك مشـيته تلك. وقـال مجاهد في قوله تعـالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القِيَامَة: ٣٣]، أي يتبختـر، وإذ قد ذكرنـا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع، والله تعالى أعلم.

بيان فضيلة التواضع:

قال رسول الله ﷺ: «**ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» [رواه مسلم]، وقال المسـيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا والذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة».

الآثار: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع حَكَمَتَّه وقال: انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعَدَا طوره رهصه الله في الأرض وقال: اخسأ أخسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير. وقال سلمان الفارسي لجرير ابن عبد الله: تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير، أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات، التواضع»، وقال يوسف بن أسباط: «يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع مع كثير الاجتهاد». وقال الفضيل، وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: «أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته». وقال ابن المبارك: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل». وقال قتادة: «من أُعطي مالًا أو جمالًا أو ثيابًا أو علمًا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالًا يوم القيامة». وقيل: «أوحى الله تعالى إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك». وقال كعب: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله بنفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه». وقيل لعبد الملك بن مروان: «أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة». ودخل ابن السماك على هارون فقال: «يا أمير المؤمنين، إنّ تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ أمرًا آتاه الله جمالًا في خلقته وموضعًا في حسبه وبسط له في ذات يده فعفَّ في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة

وقرطاس وكتبه بيده»، وكان سليمان بن داود عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: «مسكين مع مساكين».

ورُوي: أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: «أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلًا». وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات: «لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم إني أخشى أنهم حرموا بسببي». ويقال: «أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه». وقال زياد النمري: «الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر». وقال مالك بن دينار: «لو أن مناديًا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلًا والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلًا بفضل قوة أو سعي، قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكًا». وقال الفضيل: «من أحب الرئاسة لم يفلح أبدًا». وقال موسى بن القاسم: «كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبد الله، أنت إمامنا، فادع الله عَزَّوَجَلَّ، فبكى ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال: فرأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم فقال: «إنّ الله عَزَّوَجَلَّ رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل». وقال أبو سليمان: «لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه». وقال أبو يزيد: «ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعًا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالًا، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عَزَّوَجَلَّ ومعرفته بنفسه»، وقال أبو سليمان: «لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه». وقال وهيب بن الورد: «التواضع أحد مصائد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع». وقال يحيى بن خالد البرمكي: «الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم». ويقال: «التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح». ويقال: «لا عز إلا لمن تذلل لله عَزَّوَجَلَّ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عَزَّوَجَلَّ، ولا أمن إلا لمن

خـاف الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ربـح إلا لمـن ابتاع نفسـه من الله عَزَّوَجَلَّ». وقال أبـو علي الجوزجاني: «النفس معجونة بالكبر والحرص والحسـد، فمـن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحـة والقناعـة، وإذا أراد الله تعالى به خيرًا لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسـه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسـد في نفسـه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا هاجت في نفسـه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عَزَّوَجَلَّ».

وعن عمرو بن شـيبة قال: «كنت بمكة بـين الصفا والمروة فرأيت رجلًا راكبًا بغلة وبـين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس، قال: ثم عدت بعد حين ودخلت بغداد فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لي: مالك تنظر إليَّ؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة، ووصفت له الوصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعنـي الله حيث يترفع النـاس». وقال المغيرة: «كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول: إنّ زمانًا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سـوء، وكان عطاء السـلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض، وقال هذا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاسـتراح الناس». وقال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع»، نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

اعلم أنّ الكبر ينقسـم إلى باطن وظاهـر. فالباطن هو خُلُق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. واسـم الكبر بالخُلُق الباطـن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلـك الخلق، وخلـق الكبر موجب للأعمال، ولذلك إذا ظهر عـلى الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهـر يقال: في نفسـه كـبر. فالأصل هو الخُلُـق الذي في النفس وهو الاسـترواح والركـون إلى رؤية النفس فوق المتكبَّر عليه، فإن الكبر يسـتدعي متكـبَّرًا به، وبه ينفصل

الكبر عن العجب – كما سيأتي – فإن العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصوّر أن يكون معجبًا، ولا يتصور أن يكون متكبرًا إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرًا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لا أنّ هذه الرؤية تنفي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك، فتلك العزة والهزة والركون إلى هذه العقيدة هو خلق الكبر.

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضًا عزة وتعظمًا، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غَافِر: ٥٦]، قال: عظمة لم يبلغوها، فسر الكبر بتلك العظمة، ثم هذه العزة تقتضي أعمالًا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويُسمَّى ذلك تكبرًا، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم مائلًا بين يديه إن اشتدّ كبره، فإن كان أشدّ من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلًا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته، فإن كان دونه ذلك فأنف من مساواته وتقدّم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإن حاجَّ أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وُعِظ استنكف من القبول، وإن وَعَظَ عنَّف في النصح، وإن رُدَّ عليه شيء من قوله غضب، وإن علَّم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتنَّ عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامَّة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالًا لهم واستحقارًا.

الكبر آفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلًا عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر**»، وإنما صار حجابًا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، فإنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز. ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبةٍ منه. والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى بعض لا محالة. وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ثم قال: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢]، ثم أخبر أن أشدّ أهل النار عذابًا أشدهم عتيًا على الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، وقال عز وجل: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقيل في «التفسير»: «سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت». وقال ابن جريج: «سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها». ولذلك قال المسيح عليه السلام: «إنّ الزرع ينبت في السهل ولا

ينبت على الصفا، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أنّ من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن طأطأ أظله وأكنه. فهذه مثل ضَرَبَه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال: «من سفه الحق وغمض الناس».

بيان المتكبَّر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه:

الأول -

التكبر على الله؛ وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ، فإنه كان يحدِّث نفسه بأن يقاتل رب السماء، وكما حكي عن جماعة من الجهلة، بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى، إذ استنكف أن يكون عبدًا لله، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٠].

القسم الثاني -

التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بتكبره للانقياد للحق والتواضع للرسل، كما قصَّ الله قولهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقوله: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الأنعام: ٨]، وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩]، فتكبر

هو على الله وعلى رسله جميعًا. قال وهب: «قال له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: آمن ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان، فشاور هامان، فقال هامان: بينما أنت رب يُعبد إذ صرت عبد تَعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ». وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قال قتادة: «عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ قالوا: غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فـقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، أي استحقارًا لهم واستبعادًا لتقدمهم. وقالت قريش لرسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بعينهم لفقرهم، وتكبروا عن مجالستهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢]، قيل: «يعنون عمارًا وبلالًا وصهيبًا والمقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة، فجهل كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محقًا، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عَزَّ وَجَلَّ وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

القسم الثالث -

التكبر على العباد؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم. وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضًا عظيم من وجهين:

أحدهما - أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله. الوجه الثاني: الذي تعظم به الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦]، فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذ ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة:٢٠٦]. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦] قام رجل يأمر بالمعروف فقتل، فقام آخر فقال: أتقتلون الذي يأمرون بالقسط من الناس، فقُتِل، فقَتَل المتكبرُ الذي خالفه والذي أمره كبرًا. وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثمًا إذا قيل له: اتق الله، قال: عليك نفسك! وقال صلى الله عليه وسلم لرجل: «**كل بيمينك**» قال: لا أستطيع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**فما منعه إلا كبره**» [رواه مسلم]، قال: فما رفعها بعد ذلك أي اعتلت يده. فإذًا تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله، وإنما ضُرب إبليس مثلًا لهذا، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به، فإنه قال: أنا خير منه، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجرّه ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت ابن قيس بن شماس، فقال: يا رسول الله، إني امرؤ قد حبب إليَّ من الجمال ما ترى،

أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: «**لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس**»، وفي حديث آخر: «**من سفه الحق**»، وقوله: «**وغمص الناس**»، أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى، «**وسفه الحق**» هو رده وهي الآفة الثانية، فكلُّ من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو ردَّ الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى، ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

بيان ما به التكبر:

اعلم: أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب:

الأول ـ العلم؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء! فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدءوه بالسلام، فإن بدأه واحدٌ منهم بالسلام و رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويدًا عليه يلزم شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يقوموا له ويخدموه شكرًا له على صنيعه، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا، أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم وهذا بأن يُسمَّى جاهلًا أولى من أن يُسمَّى عالمًا، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعِظَم خطر العلم

فيه - كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم - وهذا العلم يزيد خوفًا وتواضعًا وتخشعًا، ويقتضي أن يرى كل الناس خيرًا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم. ولهذا قال أبو الدرداء: «من ازداد علمًا ازداد وجعًا». وهو كما قال.

فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرًا وأمنًا؟

فاعلم أن لذلك سببين:

أحدهما - أن يكون اشتغاله بما يسمى علمًا وليس علمًا حقيقيًا، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربَّه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها علمًا وبها كبرًا ونفاقًا، فهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علومًا، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالبًا.

السبب الثاني - أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الداخلة رديء النفس سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولًا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يَرُض نفسه في عبادة ربه، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم - أيّ علم كان - صادف العلم من قلبه منزلًا خبيثًا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلًا فقال: «العلم كالغيث ينزل من السماء حلوًا صافيًا فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا والمتواضع تواضعًا، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرًا، وإذا كان الرجل خائفًا مع جهله فازداد علمًا علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفًا وإشفاقًا وذلًا وتواضعًا، فالعلم من أعظم ما يتكبر به؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَٱخْفِضْ

جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159]، ووصف أولياءه فقال: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وكذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**يكون قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا**» ثم التفت إلى أصحابه وقال: «**أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار**» [السلسلة الصحيحة [١٨٩٥]]، ولذلك قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم.

الثاني - العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في الدنيا - فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ – إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء – وكأنهم يرون عبادتهم منَّة على الخلق.

وأما في الدين - فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيًا وهو الهالك تحقيقًا – مهما رأى ذلك – قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم**» [رواه مسلم]، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدرٍ بخلق الله مغتر بالله، آمن من مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شرًا احتقاره لغيره. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كفى بالمرء شرًا أن يحقر أخاه المسلم**» [رواه مسلم]، وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل! وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال! كما روي أن رجلًا في بني إسرائيل كان يقال له: خليع بني إسرائيل – لكثرة

فساده مرَّ برجل آخر يقال له عابد بني إسرائيل، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعل الله يرحمني! فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل فكيف يجلس إليّ؟ فأنف منه وقال له: قم عني! فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان: مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرى: فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع.

وهذا يعرِّفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذلَّ خوفًا منه فقد أطاع الله بقلبه، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب. وهذا المتكبر إذا استخف به مستخف أو أذاه مؤذٍ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار ممقوتًا عند الله، ولو آذى مسلمًا آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده، وهو جهلٌ وجمعٌ بين الكبر والعجب والاغترار بالله، وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول: سترون ما يجري عليه؟ وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته، وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام منه، مع أنه يرى طبقات الكفار يسبون الله ورسوله، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم، فمنهم من قتلهم، ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به. ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين.

وأما الأكياس من العباد: فيقولون: ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لاستراح الناس. وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم، فانظر إلى الفراق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهرًا وباطنًا؛ وهو وجلٌ مزدر لعمله

وسعيه، وذلك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به، ثم أنه يمتنى على الله بعمله. ومن اعتقد جزمًا أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله وإعجابه عمله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله.

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى - أن يكون الكبر مستقرًا في قلبه يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرًا من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

الثانية - أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطأطأ إنما الورع في القلوب، قال رسول الله ﷺ: «**التقوى هاهنا**» [رواه مسلم] وأشار إلى صدره، فقد كان رسول الله ﷺ أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقًا وأكثرهم بشرًا وتبسمًا وانبساطًا. ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ: «يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمنّ عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين مثله. ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه ﷺ: «﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]»، وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالًا ممن هو في الرتبة الثالثة، وهو الذي يظهر

الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل.

أما العابد: فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد: من هو وما عمله ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص، ثم يثني على نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم، وفلان ينام سحرًا ولا يكثر القراءة، وما يجري مجراه، وقد يزكي نفسه ضمنًا فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض، أو ما يجري مجراه، يدعي الكرامة لنفسه. وأما مباهاته: فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر له قوته وعجزهم، وكذلك يشتد في العبادة خوفًا من أن يقال: غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم: فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانًا وفلانًا، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته: فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يَغلب ولا يُغلَب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويستاء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يُرَى أنه أعظم منه.

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»، كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله ﷺ يقول: «**إنه من أهل**

النار؟» وإنما العظيم من خلا عن هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظيم وتكبر، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له: إن لك عندنا قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا، فإن رأيت لها قدرًا فلا قدر لك عندنا، ومن لم يعلم هذا في الدين فاسم العالم عليه كذب، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرًا. فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث - التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا وعلمًا، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره: يا نبطي ويا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان بن فلان، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إليَّ؟ ومع مثلي تتكلم؟ وما يجري مجراه. وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحًا وعاقلًا، إلا أنّه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه ومن ذلك ما روي أنّ رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أمَّ لك؟ فقال النبي ﷺ: «**افتخر رجلان عند موسى** عليه السلام **قال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عدَّ تسعة، وقال الآخر: أنا فلان بن فلان بن الإسلام فأوحى الله تعالى إلى موسى** عليه السلام **قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم وللآخر: هما في الجنة وأنت ثالثهم**» [السلسلة الصحيحة]، وقال رسول الله ﷺ: «**ليدعن أقوام الفخر بآبائهم وقد صاروا فحمًا في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بآنافها القذر**» [رواه أبو داود والترمذي وحسنه الألباني].

الرابع - التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس.

الخامس - الكبر بالمال؛ وذلك يجري بين الملوك في خزانتهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم،

فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، حتى أجابه فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٩-٤١]. وكان ذلك تكبرًا منه بالمال والولد، ثمَّ بيَّن الله عاقبة أمره بقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]، ومن ذلك تكبر قارون، إذ قال تعالى إخبارًا عن تكبره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

السادس - الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع - التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالمعاشرة والأقارب والبنين، وبالجملة؛ فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالًا وإن لم يكن في نفسه كمالًا أمكن التكبر به حتى أنّ الفاجر قد يفتخر بكثرة الشر وكثرة الفجور ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئًا فيه.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له:

اعلم أن التكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة، وينبغي أن تسمى تكبرًا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن والذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر - كما سيأتي معناه - فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه أو بشيء من أسبابه استعظم وتكبر.

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبِّر، وسبب في المتكبَّر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما.

أمـا السـبب الذي في المتكبر فهـو: العجب، والذي يتعلق بالمتكـبر عليه هو الحقد، والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء.

أمـا العجـب: فقد ذكرنا أنـه يورث الكـبر الباطن والكـبر يثمر التكـبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأمـا الحقـد: فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالـذي يتكبر على من يرى أنه مثلـه أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسـبب سـبق منه فأورثه الغضب حقدًا ورسـخ في قلبه بغضه، فهو لذلك لا تطاوعه نفســه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقًا للتواضع، فكم من رذل لا تطاوعه نفســه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له؟ ويحملـه ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الأنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه، وإن علم أنه لا يسـتحق ذلك، وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه،ولا يسأله عما هو جاهل به.

وأمـا الحسـد: فإنـه أيضًا يوجـب البغض للمحسـود وإن لم يكن من جهتـه إيذاءٌ وسـببٌ يقتـضي الغضـب والحقـد، ويدعو الحسـد أيضًا إلى جحـد الحق حتـى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشـتاق إلى العلم، وقد بقي في رذيلة الجهل لاسـتنكافه أن يسـتفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسـدًا وبغيًا عليه؟ فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يسـتحق التواضع بفضل علمه، ولكن الحسـد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأمـا الرياء: فهو أيضًا يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسـدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منـه ولا يتواضع له في الاسـتفادة خيفة من أن يقـول الناس: إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسـه لكان لا يتكبر عليه. وأما الذي يتكبر

بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضًا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذبًا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطنه بأنه لا يستحق ذلك، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين، وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار، وهو إن سُمِّي متكبرًا فلأجل التشبه بأفعال الكبر.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه آثر التواضع والكبر:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه ونظره شزرًا وإطراقه رأسه وجلوسه متربعًا أو متكئًا وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها: التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام». وقال أنس: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك».

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء: «لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما مشي خلفه، وكان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشي قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يبقي هذا من قلب العبد؟!!

ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال فحدثنا، فجاء سفيان فقيل له: يا أبا إسحاق، تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه؟

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب: «جلست إلى عبد العزيز بن رواد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف رجلًا منكم شرًا مني؟»، وقال أنس: «**كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله** ﷺ **فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء**» [رواه مسلم].

ومنها: أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم. [قلتُ: إن كان يفعل ذلك أخذًا بالأسباب وبُعدًا عن أسباب العدوى مع اعتقاد قلبه بأنّ النفع والضر بيد الله وحده فهذا مشروع بخلاف من يمتنع من ذلك تكبرًا وترفعًا].

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، والتواضع خلافه: روي عن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أُفأنبه الغلام؟ فقال:هي أول نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتًا فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ ذهبتُ وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء! وخير الناس من كان عند الله متواضعًا».

ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، قال عليّ رضي الله عنه: «لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله، وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلًا له من خشب إلى الحمام». وقال ثابت بن أبي مالك: «رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان، فقال:

أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك» وعن الأصبغ بن نباته قال: كأني أنظر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معلقًا لحمًا في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله». وقال بعضهم: «رأيت عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد اشترى لحمًا بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل».

ومنها: اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البذاذة من الإيمان**»، فقال هارون: سألت معنًا [قلتُ: لعله معن بن أبي زائدة] عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب: «رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم، وعوتب عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب، وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «جودة الثياب خيلاء في القلب». وقال طاووس: «إني لأغسل ثوبيَّ هذين فأنكر قلبي ما داما نقيين». ويروى أن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة ما فيها: فلما استخلف كان تُشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول: ما أجوده لولا لينه! فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين. فقال: إنّ لي نفسًا توّاقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطبقات تاقت إلى ما عند الله عَزَّ وَجَلَّ». وقال سعيد بن سويد: «صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله قدأعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه مليًا ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة.

فإن قلت: فقد قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جودة الثياب خيلاء القلب. وقد سئل نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال: «**لا، ولكن من سفه الحق وغمص الناس**»، فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم أنّ الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله

ﷺ وهو الذي عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال: «إني امرؤ حبب إليّ من الجمال ما ترى»، فعرف أنّ ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرضا بالثوب الدون قد لا يكون من التواضع. وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان، وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في ستور داره، فذلك ليس من التكبر. فإذا انقسمت الأحوال نُزِّل قول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على بعض الأحوال على أنّ قوله: خيلاء القلب؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب، وقول نبينا ﷺ: «**إنه ليس من الكبر**» يعني أنّ الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثًا للكبر. وبالجملة: فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة. وقد قال ﷺ: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة**» [رواه النسائي وابن ماجة]، وحسنه الألباني وقال: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» [رواه الترمذي وأورده الألباني في «صحيح الجامع» برقم [١٨٨٧]]، وقال بكر بن عبد الله المزني: البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية، وإنما خاطب بهذا قومًا يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح وقد قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية».

ومنها: ألا يتواضع بالاحتمال إذ سُبَّ وأوذي وأُخذ حقه. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد. وبالجملة؛ فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فيه فينبغي أن يُقتدى به، ومنه ينبغي أن يُتعلم.

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له:

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان:

أحدهما - استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني - دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

المقام الأول - في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده، فالقول فيه يطول، وأما معرفته نفسه فهو أيضًا يطول ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع، ويكفيه أن يعرض معنى آية واحدة في كتاب الله، فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢]، فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، وقد كان في حيز العدم دهورًا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظمًا، ثم كسا العظم لحمًا، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئًا مذكورًا، فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو على أخس الأوصاف

والنعوت! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملًا بل خلقه جمادًا ميتًا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ١-٢] قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودًا بعد العدم، وحيًا بعد الموت، وناطقًا بعد البكم، وبصيرًا بعد العمى، وقويًا بعد الضعف، وعالمًا بعد الجهل، ومهديًا بعد الضلال، وقادرًا بعد العجز، وغنيًا بعد الفقر؟ فكان في ذاته لا شيء وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئًا، وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضًا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جَلَّ وَعَلَا، ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠]، وعرَّفه خسته أولًا فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ [القيامة: ٣٧-٣٨]، فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رُفع من خسته شمخ بأنفه وتعاظم، ألا يرى أنه يجوع كرهًا ويعطش كرهًا، ويمرض كرهًا، ويموت كرهًا، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا خيرًا ولا شرًا، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتُفلج أعضاؤه ويُختلس عقله ويُختطف روحه ويُسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل إن تُرك بقي وإن اختُطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنَّى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١-٢٢]، ومعناه أنه يُسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جمادًا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأول نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميمًا رفاتًا، ويأكل الدود أجزاؤه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثًا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابًا يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان، فيصير مفقودًا بعد ما كان موجودًا. وصار كأن لم يغن بالأمس حصيدًا كما كان في أول أمره أمدًا مديدًا، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك ترابًا. لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر إليه المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٤] فيقول: وما هو؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعًا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٢٢]، فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]، فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ وقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبًا أو خنزيرًا ليصير مع البهائم ترابًا ولا يكون إنسانًا يسمع خطابًا أو يلقى عذابًا، وإن كان عند الله

مستحقًا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق، ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يُسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة - إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو - كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئًا حتى يعتقد له فضلًا؟ وأي عبد لم يذنب ذنبًا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنّه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله. أرأيت مَنْ جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا؟ كيف يكون ذله في السجن، أفترى أنه يتكبر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلّا والدنيا سجنه، وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره؟ فيكفيه ذلك حزنًا وخوفًا وإشفاقًا ومهانة وذلًا. فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين، ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد**» [انظر السلسلة الصحيحة برقم [٥٤٤]]، وقيل لسلمان: لم لا تلبس ثوبًا جديدًا؟ فقال: إنما أنا عبد فإذا أعتقت يومًا لبست جديدًا أشار به إلى العتق في الآخرة، ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أُمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعًا، وقيل: الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادًا، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائمًا وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديمًا يأنفون من الإنحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله

فلا ينكس رأسه لإصلاحه، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضّعة أُمروا به لينكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائمًا هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقًا، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعًا.

المقام الثاني - فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي.

الأول - النسب فيمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما - أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباءٍ ذوي شرفٍ   لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسًا في صفات ذاته، فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟

الثاني - أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وحده، فإن أباه القريب من نطفة قذرة وجده البعيد مِن تراب ذليل، وقد عرّفه الله تعالى نسبه فقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة: ٧-٨]، فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنونًا كيف يتكبر؟

فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه، فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم: إنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم

يبق له شك في صدقهم، أفترى أن ذلك يبقي شيئًا من كبره؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم، فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره. فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها، لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه؟

السبب الثاني - التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدِّر عليه تعززه بالجمال، فإنه وُكِّل به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعه أو دفعتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلًا عن أن يمسه أو يشمه.

وفي أول أمره خلق من النطفة ودم الحيض، وأخرج من مجرى الأقذار إذ خرج من الصلب، ثم من الذكر مجرى البول، ثم من الرحم مفيض دم الحيض، ثم خرج من مجرى القذر. قال أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يخطبنا يقذر إلينا أنفسنا ويقول: «خرج أحدكم من مجرى البول مرتين»، وكذلك قال طاووس لعمر بن عبد العزيز: «ما هذه مشية من في بطنه خراء؟ إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته، وهذا أوله ووسطه.

ولو ترك نفسه في حياته يومًا لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط. كيف ولو كان جماله باقيًا وعن هذه القبائح خاليًا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له بل هو في

كل حين يتصور أن يزول بمرض أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث - التكبر بالقوة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجّع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنه لو سلبه الذباب شيئًا لم يستنقذه منه، وأن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأنّ شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأنّ حمّى يومٍ تحلل من قوّته ما لا ينجبر في مدة، فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابه فلا ينبغي أن يفتخر بقوته! ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟

السبب الرابع والخامس - الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم. وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلًا، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانًا من القدر، فإن تغيَّر عليه كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل لأنها أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء، ومن عرف ذلك لابد وأن يزول كبره.

ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان

وأنّ أبويـه كانا مملوكين له، فعلم ذلـك وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشـى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكـه ليعـرف أنّ لـه مالـكًا، ثم نظر العبد فرأى نفسـه محبوسًـا في منزل قـد أحدقت به الحيـات والعقـارب والهوام، وهـو في كل حال على وجل من كل واحـدة منها، وقد بقي لا يملـك نفسـه ولا ماله ولا يعـرف طريقًا في الخـلاص ألبتة، أفترى من هـذا حاله هل يفخـر بقدرته وثروته وقوته وكماله، أم يذل نفسـه ويخضع؟ وهـذا حال كل عاقل بصير فإنـه يرى نفسـه كذلك، فلا يملك رقبته وبدنه وأعضائـه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشـهوات وأمراض وأسـقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك، فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته، إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة. هذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجـة، وهـو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهـما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما، ولكن التكبر بهما أيضًا نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السـبب السادس - الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشـدة شـديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عنـد النـاس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهمـا، بل لا قدر لهما أصلًا إلا إذا كان معهما علم وعمل، ولذلك قال كعب الأحبار: «إنّ للعلم طغيانًا كطغيان المال». وكذلك قـال عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العَـالِم إذا زلّ زلّ بزلته عَالَم. فيعجز العالم عن أن لا يسـتعظم نفسـه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم. ولن يقدر العَالِم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:

أحدهمـا - أن يعلـم أنّ حجـة الله على أهـل العلم آكد، وأنه يُحتمـل من الجاهل ما لا يحتمـل مـن العالم، فإنّ من عصى الله تعالى عـن معرفة وعلم جنايته أفحش، إذ لم يقض حـق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة يلقى في النـار فتندلـق أقتابه فيـدور بها كما يـدور الحمار بالرحـا فيطيف به أهل النـار فيقولون**

مالـك؟ فيقـول: كنـت آمـر بالخير ولا آتيـه وأنهى عـن الشر وآتيـه» [متفق عليـه]، وقد مثّـل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَـن يعلم ولا يعمـل بالحمار والكلب فقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥]، أراد به علماء اليهود. وقال في بلعم ابن باعوراء: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]. قـال ابـن عبـاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أوتي بلعـم كتابًـا فأخلد إلى شـهوات الأرض أي سـكن حبه إليها فمثله بالكلب: ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، أي سـواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطـر، فأي عالم لم يتبع شـهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الـذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظـم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطـر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظـم من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالمالك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أُخذ وقُهر اشـتهى أن يكون قد كان فقيرًا، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه، فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر من هذا كله؟ فلا ينبغي أن يكون العـالم عند نفسـه أكبر من الصحابـة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهـم يقول: يا ليتني لم تلـدني أمـي! ويأخذ آخر تبنة من الأرض ويقول: «يا ليتنـي كنت هذه التبنة!»، ويقول الآخر: «ليتني كنت طيرًا أؤكل!»، ويقول الآخر: «ليتني لم أك شيئًا مذكورًا!»، كل ذلك خوفًا من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسـهم أسـوأ حالًا مـن الطير ومن التراب. ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

ومثالـه مثال عبد أمره سـيده بأمـور فشرع فيها، فترك بعضهـا وأدخل النقصان في بعضها وشـك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سـيده أم لا؟ فأخبره مخبر أنّ سـيده أرسل إليه رسولًا يخرجه من كل ما هو فيه عريانًا ذليلًا ويلقيه على بابه في الحر والشمس

زمانًا طويلًا، حتى إذا ضاق الأمر عليه وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروِّح عنه ساعة، وقد علم أنّ سيده قد فعل بطوائف عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم، وهو لا يدري من أي الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب وغيره، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني - أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله بغيضًا، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له: إن لك عندي قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا، فإن رأيت لنفسك قدرًا فلا قدر لك عندي، فلابدّ وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق والمبتدع، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه، إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، وكم من مسلم نظر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين؟ إلا أبا بكر وحده، فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلّا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة، فإذًا مِن حق العبد أن لا يتكبر على أحد، بل إن نظر إلى الجاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني، وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون

مثلـه؟ وإن نظـر إلى كبير هو أكبر منه سـنًا قال: هذا قد أطـاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظـر إلى صغـير قال: إني عصيـتُ الله قبله فكيف أكون مثلـه؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يُدريني لعله يُختم له بالإسلام ويُختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إليّ، كما لم يكن ابتداؤها إليّ؟ فبملاحظة الخاتمة يَقدر على أن ينفي الكبر عن نفسـه، وكل ذلـك بـأن يعلم أن الكمال في سـعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيـما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟ فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم مـن عابـد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسـقًا جلس بجنبه أزعجه ذلـك وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرًا والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله، وهو خير، والكبر والغضب لله ممتزجان ملتبسان لا يُميِّز بينهما إلا الموفَّقون. والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشـاهدة المبتدع أو الفاسـق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدهمـا ـ التفاتك إلى ما سـبق مـن ذنوبك وخطاياك ليصغر عنـد ذلك قدرك في عينك.

والثانـي ـ أن تكـون ملاحظتك لمـا أنت متميز به من العلـم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالـث ـ ملاحظـة إبهـام عاقبتـك، وعاقبته وأنه ربـما يختم لك بالسـوء ويختم له بالحسنى، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيًا وصاحبك هالكًا بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول: إذا كان للملك غلام أي عبد وولد هو قرة عينه، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به، ويغضب عليه، فإن كان الغلام محبًا مطيعًا لمولاه فلا يجد بُدًا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام، فإذًا ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظنّ أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبةً لمولاك، إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة. فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لغيره مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور. فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع - التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضًا فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى**

رجـل مـن أصحابي» [رواه الترمذي وانظر صحيح الجامع برقم[٤٢١٣]]، **إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.**

فـإن قـال العابد: ذلك لعـالم عامل بعلمه وهـذا ليس كذلك فيقال لـه: أما عرفت أنّ الحسـنات يذهبن السـيئات، وكما أنّ العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائبًا عنه لم يجز له أن يحتقر عالمًا بل يجب عليه التواضع له.

فـإن قلت: فـإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فـوق العابد لقوله ﷺ: **«فضـل العالم على العابد كفضلي على أدنـى رجل من أصحابي»**؟ فاعلم أن ذلك كان ممكنًا لو علم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشـكوك فيها، يحتمل أن يموت بحيث يكـون حاله عند الله أشـد مـن حال الجاهل الفاسـق، وإذا كان هذا ممكنًا كان على نفسـه خائفًا، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفًا على نفسـه وقد كُلِّف أمر نفسـه لا أمر غـيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسـه الخـوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعـه من التكـبر بكل حال. فهذا العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسـمون في حقه إلى مسـتورين وإلى مكشـوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور، فلعله أقل عنه ذنوبًا وأكثر منه عبادة وأشـد منه حبًا لله، وأما المكشـوف حاله فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا أن تقـول: هو أكثر مني ذنبًا، لأن عـدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة. نعم، يمكن أن تعلم أنّ ذنوبه أشد كما لو رأيت منـه القتـل والـشرب والزنا، ومع ذلـك فلا ينبغـي أن تتكبر عليه إذ ذنـوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايات الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتًا، وقد جرى للفاسـق الظاهر الفسـق من طاعـات القلوب مـن حبٍ لله وإخلاصٍ وخوفٍ وتعظيمٍ ما أنت خال عنه، وقد كَفَّر الله

بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبًا عندك إن كنت مشفقًا على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك، بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئًا من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

وقد قال وهب بن منبه: ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال، فعدّ تسعة حتى بلغ العاشر فقال: العاشرة! وما العاشرة! بها شاد مجده وبها علا ذكره؛ أن يرى الناس كلهم خيرًا منه، وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعًا بقلبه، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفًا من العاقبة ويقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقًا كريمًا بينه وبين الله، فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، ولا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها، ثم قال: فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه، فهذا كلامه. وبالجملة فمن جوَّز أن يكون عند الله شقيًا، وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال.

نعم، إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرًا من نفسه وذلك هو الفضيلة، كما روى أن عابدًا آوى إلى جبل فقيل له في النوم: ائت فلانًا الإسكافي فسله أن يدعو لك، فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فأُتي في النوم ثانيًا فقيل له: ائت فلانًا الإسكاف فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيتُ أحدًا من الناس إلا وقع لي: أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد: بهذه.

والـذي يـدل عـلى فضيلة هـذه الخصلـة قولـه تعـالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي أنهـم يؤتـون الطاعـات وهـم على وجل عظيم مـن قبولها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، وقد وصف الله تعالى الملائكة - عليهم السـلام - مع تقدسـهم عن الذنـوب ومواظبتهـم على العبـادات على الدءوب بالإشـفاق، فـقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، إلى قولـه تعـالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل - وينكشف عند خاتمة الأجل - غلب الأمـن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سـبب الهلاك. فالكـبر دليل الأمن والأمن مهلك. والتواضع دليل الخوف وهو مُسعِد؛ فإذًا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلـق والنظر إليهم بعين الاسـتصغار أكثر مما يصلحه بظاهـر الأعمال. فهذه معارف بها يـزال داء الكـبر عـن القلب لا غـير، إلا أن النفس بعد هـذه المعرفة قد تضمـر التواضع وتدعـي الـبراءة من الكبر وهـي كاذبة، فـإذا وقعت الواقعـة عادت إلى طبعها ونسيت وعدهـا، فعـلى هـذا لا ينبغي أن يُكتفـى في المداواة بمجـرد المعرفة، بل ينبغـي أن تكمل بالعمل وتُجرَّب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانـه أن يمتحن النفـس بخمس امتحانات هي أدلة على اسـتخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة:

الامتحان الأول - أن ينظر حاله إذا تناظر في مسـألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء مـن الحـق على لسـان صاحبه فثقل عليه قبولـه والانقياد له والاعتراف به والشـكر لـه على تنبيهـه وتعريفه وإخراجه الحق، فذلـك يدل على أنّ فيه كبرًا دفينًـا، فليتق الله فيه وليشـتغل بعلاجه. وعلاجه يكون بالعلم والعمل. أما من حيث العلم فبأن يُذِّكر نفسـه خسـة نفسـه وخطر عاقبتـه، وأن الكـبر لا يليق إلا بالله تعـالى. وأما العمـل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق، وأن يُطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه

بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول: ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلًا عنه، فجزاك الله خيرًا كما نبهتني له! فالحكمة ضالة المؤمن، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلَّه عليها، فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعًا، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرياء، وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعًا ففيه الكبر والرياء معًا، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلّص من الثاني، فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعًا مهلكان.

الامتحان الثاني - أن ينظر إلى حاله إذا اجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل هل يقدمهم على نفسه، فإن ثقل عليه فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفًا حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزايله الكبر وهاهنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخفف على صدور المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضًا.

الامتحان الثالث - أن ينظر إلى حاله هل يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع - أن ينظر إلى حاله هل يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت فإن كانت نفسه تأبى ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلوّ الطريق فهو كبر وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل

ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك. ويروى عن عبد الله بن سلام: أنه حمل حزمة حطب فقيل له: يا أبا يوسف، قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك! قال: أجل، ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة؟.

الامتحان الخامس - أن ينظر إلى حاله هل يشق عليه لبس ثياب البذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر.

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسسًا ومذلة، والوسط يسمى تواضعًا. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور عند الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع: أي وضع شيئًا من قدره الذي يستحقه. والعالم إذا تخاسس وتذلل للسوقي فهذا أيضًا غير محمود بل المحمود عند الله العدل؛ وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بالقيام عن مجلسه والتنحي لأقرانه ومن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيرًا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره، فإذًا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير تكلف ومن غير روية، فإن خفَّ ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس، فقد خرج إلى طرف النقصان ليرفع نفسه، إذ ليس للمؤمن

أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب.

الشطر الثاني - من الكتاب في العجب، وفيه بيان ذم العجب وآفاته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدُّهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وفيه بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه.

بيان ذم العجب وآفاته:

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥]، ذكر ذلك في معرض الإنكار، وقال - عز وجل -: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر:٢]، فردَّ على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، وهذا أيضًا يرجع إلى العجب بالعمل. وقد يعجب الإنسان بعملٍ هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه. وقال ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**» [السلسلة الصحيحة [١٨٠٢]]، وقال لأبي ثعلبة - حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال -: «**إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك**» [رواه أبو داود والترمذي وحسنه]، وقال ابن مسعود: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلى بالسعي والطلب والجد والتشمير، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى. فالموجود لا يطلب والمحال لا يطلب، والسعادة

موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن هاهنا جمع بينهما.

وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]، قال ابن جريج: «معناه إذا عملت خيرًا فلا تقل عملت». وقال زيد بن أسلم: «لا تبروها، أي لا تعتقدوا أنها بارةوهو معنى العجب». وقال مطرف: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إليَّ من أبيت قائمًا وأصبح معجبًا». وقال صلى الله عليه وسلم: «**لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجبَ العجبَ**» [السلسلة الصحيحة: ٩٧٠]، وكان بشر بن منصور من الذي إذا رُؤوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة، فأطال الصلاة يومًا ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر، فلما انصرف عن الصلاة قال له: «لا يعجبنك ما رأيت مني، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه». وقيل لعائشة – رضي الله عنها –: «متى يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن»، وقد قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب.

بيان آفة العجب:

اعلم أنّ آفات العجب كثيرة فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه – كما ذكرناه – فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عَمِيَ عن آفاتها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعًا، فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان بأعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه،

ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منعه ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبدّ بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما:

اعلم أنّ العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علمٍ وعملٍ ومالٍ وغيره حالتان:

إحداهما – أن يكون خائفًا على زواله ومشفقًا على تكدّره أو سلبه من أصله، فهذا ليس بمعجب.

والأخرى – أن لا يكون خائفًا من زواله لكن يكون فرحًا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه، وهذا أيضًا ليس بمعجب.

وله حالة ثالثة – هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحًا به مطمئنًا إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه. فإذًا العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعِم. فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أنه من الله بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا،واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادًا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سُمِّي هذا إدلالًا بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، وكذلك قد يعطي غيره شيئًا فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجبًا، إن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلًا عليه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، أي لا تدل بعملك، والإدلال وراء العجب. فلا مدل إلا وهو معجب ورُبَّ معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابه دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلًا بعمله، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك، فهذا هو العُجب والإدلال وهو من مقدّمات الكبر وأسبابه، والله تعالى أعلم.

بيان علاج العجب على الجملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضدّه، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط.

فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوّته؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تمَّ، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنَّها من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه مما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة، فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمه، فينبغي أن يتعجب المنعَم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه؟ ولا ينبغي أن يعجب بنفسه، نعم يجوز أن يعجب العبد بنفسِه فيقول: الملك حكم عدل ولا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب، فلولا أنه وجد في صفة من الصفات المحمودة الباطنة

لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها، فيقال: وتلك الصفة أيضًا إذا كانت من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك، من غير وسيلة لم يكن لك أن تعجب بها كما لو أعطاك فرسًا لم تعجب به، فأعطاك غلامًا فصرت تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلامًا لأني صاحب فرس، فأما غيري فلا فرس له، فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معًا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر! فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك. فكذلك إن أعجبت بعبادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبي له، فيقال: ومن خلق الحب في قلبك؟ فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك! فإذًا لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه! لأن كل ذلك من فضل الله، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضًا من فضله وجوده.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي وإني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثوابًا، ولولا أنها عملي لما انتظرت ثوابًا، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الإنشاء فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال مني وبقدرتي فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك هو: أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله، فما عملتَ إذ عملتَ وما صليت إذ صليتَ بل الله هو الذي جعلك عاملًا مصليًا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، وهو الذي خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئًا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك من غير مشاركة من جهتك معه في الإنشاء.

ثمّ إنّ العمل قد حصل بقدرتك، فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة. أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكّنك منها فمددت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد وأخذها؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة، [ثمّ إنّ تحريك اليد لا يكون إلّا بإرادة الله وخلقه أولًا]، فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكِّل بك، فالعمل هيّن عليك، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عبادة إذ سلَّط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدَّمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاه بعدله، فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك! والعجب ممن يتعجب – إذا رزقه الله عقلًا وأفقره – ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل؟ حتى يكاد يرى هذا

ظلمًا، ولا يدري أنّ عطية العقل أعظم؛ سئل عليّ: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إنّ عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

والعجب أنّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالًا من نفسه، ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضًا عن عقلك وفقرك لامتنع عنه! فإذًا ذلك يدل على أنّ نعمة الله عليه أكبر؛ فَلِمَ يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح؟ ولا تدري المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خُيِّرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال؟ فإذًا نعمة الله عليها أكبر، وقول الفقير العاقل بقلبه: يا رب، لِمَ حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال؟ كقول من أعطاه الملك فرسًا فيقول: أيها الملك، لِمَ لا تعطيني الغلام وأنا صاحب الفرس؟ فيقول: كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس! فهب أني ما أعطيتك فرسًا أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها،ومنشأ جميع ذلك الجهل، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأنّ العبد وعمله أوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة. ولما اتكل بعض أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين على قوّتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وكلوا إلى أنفسهم فـقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. روى ابن عيينة أن أيوب – عليه السلام – قال: «إلهي، إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواي فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب، أنَّى لك ذلك؛ أي من أين لك ذلك؟ قال: فأخذ رمادًا ووضعه على رأسه وقال: منك يا رب منك يا رب، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال النبي

ﷺ لأصحابه وهم خير الناس: «**ما منكم من أحد ينجيه عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**» [متفق عليه]، ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابًا أو تبنًا وطيرًا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه؟ فإذًا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب، ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

اعلم أنّ العجب بالأسباب التي بها يتكبر - كما ذكرناه - وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يُزيَّن له بجهله، فما به العجب ثمانية أقسام:

الأوّل - أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوّته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته. وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه وفي أوّل أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني - البطش والقوّة كما حُكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه، وهو أن يعلم أنّ حمّى يوم تضعف قوته! وأنه إذا أُعجب بها ربما سَلبها الله تعالى بأدنى آفة يُسلطها عليه.

الثالث - العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضًا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقارًا

لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يُوسوس ويُجَن بحيث يُضحَك منه! فلا يأمن أن يُسلَب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلًا وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإن القاصر العقل قد لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبًا وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجبًا.

الرابع - العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم، وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس واستعظام الخالق ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب، من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكانوا عند الله شرًا من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات: ١٣]، أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال: ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولما قيل لرسول الله ﷺ: من أكيس الناس؟ لم يقل: من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: «**أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم له استعدادًا**» [السلسلة الصحيحة: ١٣٨٤]، وإنما نزلت هذه الآية حين أذّن بلال يوم الفتح على الكعبة، فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة؟ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال

النبي ﷺ: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبية الجاهلية - أي كبرها - كلكم بنو آدم وأدم من تراب**» [رواه الترمذي وأورده في صحيح الجامع برقم [١٧٨٧]]، ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ناداهم بطنًا بعد بطن، حتى قال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ: اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا**» [رواه البخاري ومسلم]، فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلا كان طاعنًا في نسب نفسه - بلسان حاله - مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

واعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله ﷺ، والنسيب أيضًا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما أشتدّ عليه غضب الملك، فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وبقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وبقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة. فالإنهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالًا على رجاء الشفاعة يضاهي المريض في شهواته اعتمادًا على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره، وذلك جهل لأن سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها، فلا يجوز ترك الحمية مطلقًا اعتمادًا على مجرّد الطب، بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج. فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب، فإنه كذلك قطعًا، وذلك لا يزيل الخوف والحذر، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله ﷺ أصحابه؛ قد

كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله ﷺ إياهم بالجنة، خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم؟

الخامس - العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الأنتساب إليهم، ولأنكر على من نسبه إليهم استقذارًا واستحقارًا لهم، ولوانكشف له ذلهم في القيامة، وقد تعلَّق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين! فأما العجب فجهل محض.

السادس - العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع، كما قال الكفار: ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ [سبأ: ٣٥]. وعلاجه ما ذكرناه في الكبر، وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزه لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيتفرقون عنه إذا مات فيُدفن في قبره ذليلًا مهينًا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئًا، وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، الآية. فأيّ عجب بمن يفارقك في أشدّ أحوالك ويهرب منك؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبرة والقيامة

وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نِعَم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك.

السابع - العجب بالمال كما قال تعالى إخبارًا عن صاحب الجنتين إذ قال: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف: ٣٤]، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غادٍ ورائح ولا أصل له، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**بينما رجل يتبختر في حُلة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**» [متفق عليه]، وأشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وقال أبو ذر: «كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي: «**يا أبا ذر، ارفع رأسك**» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال: «**ارفع رأسك**»، فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي: «**يا أبا ذر، هذا عند الله خير من قراب الأرض من مثل هذا**» [رواه أحمد وصححه الشيخ شبيب الأرناؤوط]، فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن مِن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حِلّه ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله؟

الثامن - العجب بالرأي الخطأ. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة» كما في حديث «فإذا رأيت شحًا مطاعًا وهوىً متبعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وبذلك هلكت الأمم السالفة، إذ افترقت فرقًا فكل معجب برأيه: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقًا، وعلاج هذا العجب أشدّ من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يُعرف فتعسر مداواته جدًا، وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهمًا لرأيه أبدًا لا يغتر به

إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سُنَّة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّ وتشمّر في الطلب وممارسة للكتاب والسُنَّة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمَن عليه الغلط في بعض الأمور.

❁ ❁ ❁